

## بلاغة المفردة القرآنية



إنّ تاریخ المفردة يُذکّرنا بكثیر من الأحكام النقدية التي كان لها حضورها على صفحات كتب النقد الأدبي، والإعجاز القرآنی. ففي الذاكرة بيت المسیّب ابن علس، وتعليق طرفة عليه، وما رُوی عن حسان بن ثابت، وما قيل له، وفي العصر العباسي بيت ابن هرمة وغير ذلك كثیر. ولكنّها أحكام مُتفرّقة لم تُجمع، إلى أن تلقتها كتب النقد الأدبي، وكُتُب التفسير، وكتب البلاغة، وكتب الإعجاز القرآنی.

فتجد أهل التفسير - على سبيل المثال - يُفرّقون بين الكلمة (*المُسَحّرِين*) في قوله تعالى حكاية عن قوم صالح (ع): (فَالْأُولَا إِنَّهُمَا أَرْتَهُمْ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ \* مَا أَرَتْتَهُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَمَا تَرَى إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ هَذِهِ زَانِقَةُ لَهُمَا شَرِبُوا لَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ) (*الشعراء* / 153-155)، وكلمة (*المُسَحّرِين*) في قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب (ع): (فَالْأُولَا إِنَّهُمَا أَرْتَهُمْ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ \* وَمَا أَرَتْتَهُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنْنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ \* فَأَسْقِطْهُمْ عَلَيْنَا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (*الشعراء* / 185-187).

فقد ذهب المفسرون إلى تأويل هذه المفردة بما يتناسب مع سياق الآيات، ومع آراء النحويين واللغويين كذلك. ولكنّ أصحاب كتب المتشابه اللفظي، ومن عُذْي بالجانب البلاغي من أهل التفسير ذهبوا إلى البحث عن دلالة حذف الواو من قصة صالح، وذكرها في قصة شعيب (عليهما السلام). ولمّا كان اهتماماً في هذا المقام بمعنى هذه المفردة في القصّتين، فقد تجنبت البحث عن سر ذكر الواو، أو عدم ذكرها، واكتفيت بما يُسعِفُ في تحديد دلالة لفظة (*المسحّرِين*).

لقد عرض أئمة التفسير لهذه المفردة، وذكروا الأوجه المحتملة لمعناها، حتّى أفهموا القارئ أنّها من المشترك اللفظي، ولكنّهم لم يُصرّّحوا بترجيح معنى على آخر؛ فعند الفرّاء أزّها بمعنى المخوّف، والمعلم والمخدوع، أمّا ابن جرير الطبری فقد نص على الاختلاف في معناها، فقال بعضهم هي

بمعنى: المسحورين، وقال آخرون: بمعنى المخلوقين، وقال أهل البصرة: كلّ مَنْ أكل من إنس أو دابة فهو مُسَحَّر، ومثله عند بعض زُحْة الكوفة، ثم قال: "والصواب من القول في ذلك عندي: القول الذي ذكرته عن ابن عباس، أنَّ معناه: إنَّما أنت من المخلوقين الذين يُعَذَّلُون بالطعام والشراب مثلنا، ولست ربِّا ولا ملكا فلنطيلك، ونعلم أنك صادق فيما تقول".

وذكر الزمخشري في التعليق على الآية الواردة حكاية عن قوم صالح، أنَّه الذي سُحِّرَ كثيراً حتى غلب على عقله، وقيل هو من السحر الرئيسي، وأنَّه يشر. ولكن اعتماداً على ذكر الواو وحذفها، فقد رأى أنَّه يُرَجَّح في قصة صالح البشرية، وفي قصة شعيب يُرجَّح السحر والبشرية معاً، قال: "إِنْ قلتَ: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا، وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قُصد معنيان، كلاهما منافٍ للرسالة عندهم: التسخير والبشرية، وأنَّ الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً، ولا يجوز أن يكون بشراً. وإذا تركت الواو فلم يُقصد إِلا معنى واحد، وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم".

وذكر البقاعي ما في المعنى من اختلاف، ثم رجح في قصة صالح رأي ابن عباس، الذي اختاره الطبرى من قبل، وذلك اعتماداً على قوله تعالى بعد ذلك: (مَا أَرَتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)، أي بما وجه خصوصيتك عندَها بالرسالة، وهل يكون الرسول من البشر؟.

وذكر الإسكافي أربعة أقوال في معنى المُسَحَّرين، أوَّلاً: الذين لهم سحر وروية، وثانياً: المعللون بالطعام والشراب، وثالثاً: المسحورون، ورابعاً: المخلوقون.

والذي يبدو لي كما قال الزمخشري، أنَّ الأولى في قوم صالح بمعنى البشرية، وفي قصة شعيب بمعنى السحر والبشرية وغير ذلك من الوجوه. وإنَّما ذهبت إلى ترجيح هذا الرأي على غيره، لأنَّ قوله تعالى في قصة صالح: (مَا أَرَتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)، بدل من قوله تعالى: (إِنْ مَا أَرَتَ مِنَ الْمُسَحَّرينَ)، والبدل عين المبدل منه، أو على معنى التأكيد، حيث حُذِفت الواو. وفي قصة شعيب ذكرت الواو فأفادت أن ما بعدها يختلف عمَّا قبلها، فحملت (المسحرين) دلالات متعددة أساسها المكر، والخداعة.

وهنالك مُرَجَّح آخر على أنَّ دلالة (المسحرين) في قصة شعيب أوسع منها في قصة صالح، وهو الشدة والغلوطة في حديث قوم شعيب له، وطلبهم لآية خاصة، ثم نَعَّتهم لنبيِّهم بالكذب، وفي خبر بعد خبر. وهذا غير موجود في قصة صالح. فاقتضى ذلك أن تكون دلالة (الْمُسَحَّرين) في قصة شعيب أكثر إигاثة في الاتهام منها في قصة صالح.

ونقرأ في كُتُب إعجاز القرآن، فلا نكاد نغادر مبحثاً إِلا وفيه من الأمثلة على بلاغة المفردة القرآنية الشيء الكثير، حتى حار المرء في ذكر المثال خشية التكرار، فالخطاب يُظهر لنا محاسن اختيار لفظة (فأكله) على افترسه، في قوله تعالى: (فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ) (يوسف/17)، وغيرها من المفردات.

وبعيداً عن استقصاء الأمثلة التي ملأت كُتُب القدماء، ودراسات المحدثين، نجد أنفسنا أمام عدد من الأمثلة التي تلامس موضوع المتشابه، وتتنبه له، الأمر الذي يدعو لذكر بعضها، والتعليق على بعضها الآخر، وعلى جهود الباحثين الذين كتبوا في مثل هذه الموضوعات، ليتقرَّب بذلك موضوع الدراسة من نقد النقد، أو نقد بعض الدراسات التي تناولت المفردة القرآنية.

ففاض السامرائي مثلاً تخصص في مثل هذه المباحث، وصنَّف فيها مجموعة من الكُتُب منها: (التعبير القرآني) و(بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) و(المسات بيانية في نصوص من التنزيل). ولقد استطاع السامرائي أن يُخرِّج للناس تُراثاً طيِّباً من المتشابه اللفظي، والنكات البayanية والنحوية، بعد أن كانت حبيسة الكُتُب القديمة. ولكن يُؤخذ عليه تقديم القاعدة النحوية - في كثير من الأحيان - على السياق القرآني، ونقله آراء غيره من المفسرين، وأصحاب كُتُب المتشابه اللفظي، وعدم عزوها إلى

مطانها في كثير من الأحيان، حتى يُخيّل للباحث فضلاً عن عامّة الناس أن ذلك من استنباطه، تماماً كما كان الشعراوي يفعل في تفسيره. غير أنّ في كُتُبِه أمثلة تغنى الباحثين ودراساتهم، وإن كانت في مجلتها مبثوثة في كُتُبِ التفسير والمتتشابه اللفظي.

ففي كتاب التعبير القرآني يُبيّن لنا السامرائي أنّ العرب توقع الجمع تمييزاً للقلة، وتتوقع المفرد تمييزاً للكثرة، فيقولون: ثلاثة رجال، فإذا زاد على العشرة وصار كثرة، جاؤوا بالفرد، فيقولون: عشرون رجلاً. وبهذا يحل إشكال تكرر اليوم (365) مرّة، وتكرر الأيام (30) مرّة. ويتحدّث عن البنية في التعبير القرآني، معتمداً على دلالة الفعل، ودلالة الاسم، ثمّ استخدام الفعل بدون المصدر وغيره من الموضوعات.

ويذكر في الكتاب نفسه مجموعة من الأمثلة، وذلك مثل قوله تعالى: (وَقَاتُلُوا لَنْ تَمَسُّنَّا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) (البقرة/80)، وفي آل عمران: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتُلُوا لَنْ تَمَسُّنَّا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) (آل عمران/24). ويقف أيضاً مع قوله تعالى: (لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي) (الأعراف/79)، وقوله في آية أخرى: (لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتَ رَبِّي) (الأعراف/93). ثمّ يفرق بين قوله تعالى: (فَأَخْذَهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (الأعراف/78 و91)، وقوله تعالى: (فَأَصْبَحُوا فِي دَيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود/67 و94).

هذه الأمثلة، وغيرها من مثلها، سيجد القارئ بعد دراستها أنّ السامرائي يُغْفِلُ أحياناً دلالاتها، ويكتفي بتبيّن سبب مجئها على هذا النحو من التعبير، فلا يزيد عمّا قاله الساقعون إلّا قليلاً، ومع ذلك فإنّ جده في تقريب هذه المسائل إلى الناس طيّب وواضح جدّاً.

وتحدّث فضل عباس عن الكلمة القرآنية، في جميع كُتُبِه وبحوثه، ولو أخذنا على سبيل المثال حديث عنها في كتابه (إعجاز القرآن الكريم)، نجده يُقدّم الكلمة القرآنية بعبارات، لو أفردت كلّ واحدة منها بالتمثيل لصار المبحث مباحث، ثمّ يحدّثنا عن قيمة الكلمة في العصور السابقة، إلى أن يقودنا إلى خصائص المفردة القرآنية، وما تعطيه من قيم ودلالات يصعب حصرها.

وفضل عباس يُنكرُ الترادف في القرآن الكريم، ومن ثمّ نجد له مبحثاً بعنوان: دعوى الترادف في القرآن، يقف فيه على مجموعة من الأمثلة، ويُبيّن الفرق بينها، وهو في ذلك لا يصدر عن هوى، إنّما يستقرّي النص القرآني، ويعتمد السياق، ويُوظّف ما لديه من أدوات نحوية وبيانية، حتى يطمئن إلى المعنى المستخرج. نجد ذلك في تفرّقته بين قام، ووقف، وقعد في قوله تعالى: (وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) (البقرة/20)، وقوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقْفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) (الأنعام/30)، وقوله تعالى: (وَقَفُوهُمْ إِذْ هُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات/24)، وقوله تعالى: (وَقَالُوا ذَرْنَا زَكُونَ مَعَ الْقَاعِدِينَ) (التوبه/86)، وقوله تعالى: (وَأَزْمَانَ كُنْدا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعدَ لِلسَّمَعِ) (الجن/9)، وقوله تعالى: (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النَّسَاءِ) (النور/60) وغيرها كثيرة.

ويجمع الآيات التي تتحدّث عن الخوف، والآيات التي تتحدّث عن الخشية، ويفرق بين المفردتين. وكذلك الحال مع ( جاء وأتي ) و( الفعل والعمل ) و( القعود والجلوس ) و( الإعطاء والإيتاء ) و( السنة والعام ) و( الشك والريب ) و( اللوم والتثريب والتفنيد ) وغيره.

ثمّ يسير بنا بعد ذلك، إلى أن ينتهي إلى استعمال الألفاظ المختلفة في المواقع المتتشابهة، وهذا من أقرب المباحث لموضوعنا، فيفرق فيه بين استخدام (الإلقاء) و(القذف) في سياق متتشابه، وهو سياق الجهاد ومحاربة الأعداء. وكذلك الفرق بين (حادّ) و(شاق). وفي سياق الحديث عن أهل الكتاب فرق بين (الإغراء) و(الإلقاء)، وختم فضل عباس بالفرق بين (الدثار) و(التزمل). وهي في مجلتها أمثلة وثيقة الصلة بموضوعنا، وقد ذكرتها من كُتُبِه دون غيرها من الكُتُب، وإن كانت في غيرها موجودة؛ نظراً لما فيها من معانٍ جديدة، لم يُسبق في كثير منها، وإنّما أكثر مَنْ درس الترادف، والمشترك اللفظي، والتضاد وغير ذلك من لغة القرآن الكريم. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ أحداً لم يأت بجديد

في دراسة المفردة القرآنية، وإنّما قصدت أنّ الإشارة إلى مباحث فضل عباس، تغنى عن التكرار، وتصلخ لأن تكون تمهيداً للحديث عن المتشابه اللفظي في المفردة القرآنية أكثر من غيرها.

ومع ذلك فإنّ الحديث عن الترادف لا يُمكن أن يُجسم في مثال أو مثالين، فهو يحتاج إلى دراسات مستقلة، وقد كانت وعده لآراء الفريقين: مَنْ يُنكِرُ الترادف، وَمَنْ يؤيده، وكان هدف الفريقين إثبات المزية، وليس الطعن في لغة القرآن. ومن ثمّ فإنّ ما يعنينا نحن في هذه الدراسة هو البحث عن سر التعبير بهذه الألفاظ، سواء أقيل هي من الترادف، أم نُفِيَ عنها ذلك، المهم ألا يكون القول بالترادف حائلاً دون البحث عن سر التعبير بها، أمّا أن ننعت الكلمات أو الأشياء دون البحث عن سبب الاستخدام فهذا غير مقبول في التحليل البياني.

إنّ المفردة أصل الدقة في التعبير القرآني، وذلك في اختيار الألفاظ، وانتقاء الكلمات، فالمعرفه لها شأنها، والنكرة لا تقل عن ذلك، ومثله اختيار المفرد أو الجمع، وغيره من أنواع التصريحات، شرط أن يكون ذلك محكماً أو موَسَّحاً بدقّة المعنى، والوفاء بالقصد، إضافة إلى تحديد المدلول، حتى تُمسي المفردة كأنّها خلقت لهذا الموضع دون غيره، فلا المكان يُريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يُبغي عن منزله حولاً، كلمات قرآنية يراها كلّ واحد مقدّرة على مقاييس عقله، وعلى وفق حاجته.

ولقد أوجف البلغاء بركا بهم، وجلبوا ما استطاعوا من خيلهم ورجالـهم، ولكنهم اعترفوا جميعاً أنّهم مازالوا على ساحل النص القرآني، ولم يغوصوا في لجهـهـ، وكتابٌ [١] كما قال ابن عطية في مقدمة تفسيره لو نُزِّلت منه لفطة، ثمّ أُدِير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. وقرب من هذا المعنى ما ذكره محمد عبد الله دراز: "ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدّاً، ثمّ أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك. ثمّ انظر: كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بفرض قائله؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك (كتابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلتْ مـنْ لـدـنْ دـكـيمـ خـدـيرـ) (هود/ ١) ▶.

المصدر: كتاب المتشابه اللفظي في القرآن الكريم